

ملخص البحث باللغة العربية:

تناولت الباحثة موضوع (التهكم) في المصادر البلاغية المتوافرة في المكتبة العربية؛ فوقفت على جمع مُفرّقه من مُصنّفات البلاغيين، ووصلت بينه في محاولة لمعرفة التطور الذي مرّ به مضمون "التهكم" ومصطلحه، ثم زادت على ذلك بأن وضعت من مُجمل المعروض صياغة جديدة تأتلف فيها جميع التعريفات. ولم تألُ الباحثة جهداً في الوقوف على أغراض موضوعها بحسبان ما عرضه البلاغيون، مشفوعة بالأمثلة والشواهد. واحتوت الدراسة في أثنائها على أساليب "التهكم" اللغوية، بشواهد القرآن الكريم، وأمثلة الأدب المُنتخبة من الشعر والنثر. وانتهت الباحثة في القسم الأخير من دراستها إلى عرض موضوعها عرضاً بلاغياً في ضوء القرآن الكريم بوصفه الأنموذج الأعلى للبيان في اللغة العربية، مُعَصِّدةً تحليلاتها بأقوال أشهر العلماء والمُفسِّرين.

methods.

This study attempts to seek consideration of the term sarcasme in the most important sources of rhetorical library of Arabic through the collection of material dispersed to see the evolution of definitions of this term used by Arabs people who deal with rhetoric, and compare between the definitions, and trying to take out a comprehensive definition of this term, then display the most important purposes of sarcasme in Arabic rhetoric, accompanied by clear examples, and then look at the language models which been used in that style.. all of which is associated with the trial of the Koran and prose and poetry.. and in the last section attempts to study the term (sarcasme) of speech in the Koran, as a highest model of linguistic, and study the presence of sarcasme in the Koran, which been agreed by the most famous interpreters of the Koran.

مقدمة

تعدّ البلاغة واسطة العقد في علوم العربية، فهي تستحوذ على ما دونها استحواداً يسمح معه أن يُذكر شيء لا تُذكر في أثناءه..
أو هي كدائرة معارف متكاملة، تتألب فيها الفنون وتتشعب طوراً تعود بعده إلى ما كانت عليه من التوافق والوئام، وقد تبدو في طور من الأطوار مُستقرة على حالٍ لا يبين بها أيّها أخذ منها بِحُجَزٍ الآخر.. فقد يطرق النحو باب البلاغة، وقد تطرق البلاغة باب النحو.. فيتسالم أحدهما مع الآخر تسالماً يغيب به الفاضل في المفضل، وهذا من أعاجيب العربية على ما سيأتي بيانه إن شاء الله.
ثمّ انبثق النقد من تلك الدائرة انبثاقاً طال جميع الفنون اللاحقة التي لم تكن معروفة قبل الإسلام، كالتفسير والفقه والحديث والأصول وما يتصل بها من الفروع.
وتزخر مُصنّفات البلاغة بكثيرٍ من المُصطلحات، أعمل فيها المتأخرون أقلامهم حدّاً وتحليلاً، فلم تُسعف مساعيهم بيان ما عرضوا له بأجمعه؛ لأنّ بعضه ظلّ غير محدود يعتوره الغموض والإبهام، من ذلك مُصطلح (التهكم) الذي وجدته مُتناثراً في أثناء الصحائف، غير منتظم في باب، إلّا من أثرٍ ضعيف، أو مُقتضب، فآليت أن أستفرغ جهدي فيه حدّاً وتنظيماً، فجمعتُ منشوره، وعلقتُ عليه، أو توسّعتُ فيه بعد إذ وجدته مُفتقراً إلى الشرح والتبيان.

مراحل البحث:

- * جمع المادة البلاغية التي يدور التهكم في فلكها (ما ورد منه مُبوّباً، أو مُتناثراً غير مُبوّب).
- * الموازنة بين تعريفات التهكم، والحذف منها والاصطفاء، ووضع تعريف بلاغي جامع مانع لهذا المصطلح.
- * الوقوف على أهم أغراض التهكم في اللسان العربي، مشفوعةً بالأمثلة الواضحة.

- * الوقوف على أهم أساليب اللغوية المستخدمة في التهكم، مقرونة بالأمثلة بين شعر ونثر وقرآن.
- * بيان معنى التهكم في القرآن، وأنواعه وأهم أساليبه.

.....

التهكم

من هكّم، يُقال: تهكّم على الأمر، وتهكّم بنا زرى علينا وعيبت بنا، والتهكّم التكبر، وتهكّم عليه إذا اشتد غضبه، والتهكّم التبختر بطراً والتهكّم السيئ الذي لا يُطاق، والتهكّم تهوّر البئر وتهكّمت البئر تهدّمت، والتهكّم الاستهزاء، وفي حديث أسامة: "فخرجت في أثر رجل منهم جعل يتهكّم بي؛ أي يستهزئ ويستخف"، وحكى ابن بري عن أبي عمرو التهكّم حديث الرجل في نفسه، وقال التهكّم الوقوع في القوم. (١) والمقصود هنا الاستهزاء، وهو منقول من التهذم كما قال بعضهم، والغضب كما قال آخرون، وكلام هؤلاء فيه نظر؛ لأنّه قد ورد بمعنى الاستهزاء في اللغة، فأبي داعٍ إلى كونه منقولاً من معنى آخر؟ (٢).

التهكّم عند البلاغيين:

يأتي حدّ (التهكّم) متفاوتاً عند أهل الصنعة من البلاغيين، وهذا بيان بأشهر أقوالهم فيه:

* ابن أبي الإصبع المصري (٦٥٤هـ):

"التهكّم في الصناعة: عبارة عن الإتيان بلفظ البشارة في موضع النذارة، والوعد في مكان الوعيد تهاوناً من القائل بالمقول له، واستهزاءً به" (٣) وقد استمدّ هذا المعنى الاصطلاحي من المعنى اللغوي، حيث قال: (وقال أبو زيد: تهكّمت تعتبت، وهكّمت عيرته تهكّمت عيته، وعلى هذا يكون التهكّم إما لشدة الغضب قد

(١) انظر اللسان (هكّم) ٦١٧/١٢، لابن منظور الإفريقي، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى.
(٢) انظر أنوار الربيع في أنواع البديع ١/ ١٨٥، لابن معصوم المدني، تحقيق شاعر هادي شكر، مكتبة العرفان كربلاء، العراق، الطبعة الأولى ١٩٦٨، ومعجم المصطلحات البلاغية وتطورها ٤٢٩-٤٣٠، للدكتور أحمد مطلوب، مكتبة لبنان ناشرون، الطبعة الثانية، ١٩٩٦.
(٣) بديع القرآن ٢٨٣، لابن أبي الإصبع المصري، تحقيق محمد حفني شرف، نهضة مصر للطباعة والنشر.

أُوعِد بلفظ البشارة، أو لشدة الكبر وتهاونه بالمخاطب قد فعل ذلك، أو ذكّر بفعله عند العقوبة على سبب المَعْيَرَة له فهذا أصله (١).

* تعريف يحيى بن حمزة العلوي (٧٤٥هـ):

يقول: "وهو في مصطلح علماء البيان عبارة عن إخراج الكلام على ضدِّ مقتضى الحال استهزاءً بالمخاطب" (٢).

* تعريف صفى الدين الحلي (٧٥٠هـ):

"والتهكُّم في الاستعمال المصطلح الهزءُ والسخرية بالمتكبرين، كمخاطبتهم بلفظ الإجلال في موضع التحقير، والبشارة في موضع التحذير، والوعد في موضع الوعيد" (٣).

* تعريف ابن معصوم المدني (١١٢٠هـ):

"هو في الاصطلاح أخصُّ منه في اللغة، لأنَّه فيها بمعنى الاستهزاء مطلقاً، وفي الاصطلاح هو الخطاب بلفظ الإجلال في موضع التحقير، والبشارة في موضع التحذير، والوعد في مكان الوعيد، والعذر في موضع اللوم، والمدح في معرض السخرية ونحو ذلك" (٤).

ولا يخرج كلام الآخرين كابن مالك، والنويري، والسُّبكي، والحموي، والسيوطي عمّا ذكره المصري في تعريف التهكُّم وأمثله (٥).
نلاحظ في هذه التعريفات ثلاثة أمور:

(١) تحرير التحرير ٥٦٨، لابن أبي الإصبع المصري، تحقيق محمد حفني شرف، القاهرة ١٩٩٥.

(٢) الطراز ٤٧٦، ليحيى بن حمزة العلوي، تحقيق محمد عبد السلام شاهين، توزيع مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، ودار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٥.

(٣) شرح الكافية البديعية ٨٨، لصفى الدين الحلي، تحقيق د. نسيب نشاوي، دار صادر، بيروت، الطبعة الثانية.

(٤) أنوار الربيع ١/١٨٥.

(٥) انظر معجم المصطلحات البلاغية ٤٢٩.

١- لم تقف هذه التعريفات على حدود فاصلة تضع مُصطلح (التهكم) في إطاره البلاغي، بل كانت تقترب من معناه اللغوي، وربما كان السبب في ذلك أن هذا المُصطلح ليس بلاغياً بالمعنى الدقيق، بل مُعجمياً لغوياً يُلمح منه المُصطلح، فإنَّ المُتكلِّم يتحصَّل أغراضه بتسخير أدوات البلاغة في كلامه لأجلها.

٢- كانت هذه التعريفات تعرض لأغراض التهكم، وكيفية وروده في سياق الكلام أكثر من عرضها لمعنى المُصطلح نفسه بعيداً عن السياق.

٣- نلاحظ أن هؤلاء البلاغيين - فيما عدا تعريف يحيى بن حمزة - اعتمدوا أسلوب النقل، فقد كان أحدهم يورد التعريف نقلاً عن السابقين، بنصّه وفصّه، فإن زاد عليه شيئاً؛ فلضرورة يقتضيها المقام، وليس له علاقة بالمنقول من حيث المعنى، فأنت ترى ابن معصوم لا يأتي بشيء من تلقاء نفسه، بل ينقل تعريف (التهكم) عن الحلّي نقلاً كاملاً، مع زيادة على المتن ليست بذی بال، والسبب في هذا ما عرفناه عن المتأخرين من كونهم ناقلين لا مُخترعين، ومُتَّبِعِينَ لا مُبْتَدِعِينَ.

٤- تعريف التهكم على نحو من الأنحاء قد يُفهم منه الاختصاص، وليس كذلك، فإنَّ تعريف الحلّي المُتقدِّم في التهكم: "إنّه" الهزء والسخرية بالمتكبرين" لا يعني أنه موجب لمثله في غير القرآن؛ إذ لا مانع من أن يرد في العربية عموماً غير مخصوص، وأدلته على ذلك كثيرة.

ويبدو لي أن ما توافر عليه يحيى بن حمزة العلوي هو الأقرب إلى مُصطلح (التهكم). بلاغة. إذ قال: "وهو في مُصطلح علماء البيان عبارة عن إخراج الكلام على ضدِّ مقتضى الحال استهزاءً بالمُخاطب" .. إذ جعل يحيى التهكم مخصوصاً بعلم البيان، فإنّه يراه أليق به من أن يكون باباً في علم المعاني، بل أكثر من ذلك يرى أن التهكم يجب أن يكون ضدُّ مقتضى الحال، وهذه من نُكت البيان، ليس غير.. فإنَّ علم البيان (يُعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه ودلالة اللفظ إما على ما وضع له أو على غيره)(١).

وأما علم المعاني؛ فمباحثه مُتَصِلَةٌ بالجملة وأحوال تركيبها، وحسن تأليفها على نحو يؤدي إلى الوفاء بالمعنى (١) ..

فإنَّ (التهكم) عند يحيى بن حمزة مُصْطَلَحٌ بلاغيّ ينضوي تحت علم البيان، وإنَّ معناه في نفس المتكلم، إلا أنَّه يُورَدُ بطرق مُختلفة، وقد يدلّ اللفظ المستعمل في هذا الفن على معنى وضع له، وقد لا يدلّ، ويكون المراد منه شيء آخر تماماً، فحينما يُقال: زيد كالأسد، فإن ظاهر الكلام يدلّ على أنَّ زيدا يشبه الأسد في شجاعته، غير أنَّ الشخص الذي يعرف الجبن من زيد عارف بالمراد من هذه العبارة، وهو التهكم به والسخرية من جبنه.

لا يخفى أنَّ أبواب علم البيان ثلاثة: التشبيه، والمجاز، والكناية، والتهكم قد يأتي في أحد هذه الأبواب، وقد لا يأتي، ليرد بطرق أخرى. سيأتي الكلام عليها بإذن الله.

ويبدو لي أنَّ حصر (التهكم) في علم البيان يُعَدُّ قُصُوراً؛ لأنَّه يدخل في علوم البلاغة الثلاثة؛ البيان والمعاني والبدیع^٢، فقد أعترض البلاغيون على جعله مخصوصاً بأحدها، كما ذهب العلوي؛ إذ جعله من صنعة أهل البيان، ويرى القزويني خلاف ذلك؛ لأنَّ التداخل . من وجه نظره . قائم بين أبواب البلاغة، فإنَّ كثيراً "من الناس يُسمِّي الأول علم المعاني، والثاني والثالث علم البيان، والثلاثة علم البديع... وذلك رعاية لما اعتبره بعض الفضلاء من تخصيص العلم بالكليات المعروفة بالجزئيات، كما قال صاحب القانون في تعريف الطب: الطب علم يعرف به أحوال بدن الإنسان، وكما قال الشيخ أبو عمر رحمه الله: التصريف علم بأصول

(١) انظر محاضرات في علم المعاني ٤٢، للدكتور محمد هيثم غرة، والدكتورة منيرة فاعور، منشورات جامعة دمشق، كلية الآداب، ٢٠٠٣.

(٢) جعل السيوطي التهكم من أنواع البديع، انظر عقود الجمان ١٣٠، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٩٣٩.

يعرف بها أحوال أبنية الكلم" (١)، وربما كان هذا الاختلاط وعدم الاستقرار في المفاهيم هو الذي منع عددا من البلاغيين من تصنيفه تحت باب مُعَيَّن، لكن السبب الأقوى . كما أرى . متأت من كون التهكم غرضا معنويًا يمكن أن يندرج تحت أي باب من أبواب البلاغة كما سلف.

والآن، بعد أن استقرينا ما ورد عن البلاغيين، يبدو لي أن أكثر التعريفات استقراراً هو تعريف يحيى بن حمزة العلوي، إلا أن ما يؤخذ عليه من حصره للتهكم في علم البيان خاصة، قد يعترض عليه مُعْتَرِض فيقول: إنَّ البيان ههنا لا يُرادُ به أحد أبواب البلاغة، بل البلاغة نفسها، وإنَّما . ذكره العلوي من باب تسمية الكل بالجزء؛ لشهرته فيه، وتغلَّبه عليه من ناحية الدرس البلاغي.. فأقول: قد يكون ذلك صحيحاً، لكن لا قطعاً على أنه أراد الباب نفسه، وأزيد على ذلك قوله: "على ضد مُقتضى الحال"؛ أنَّ المقصود بـ(مُقتضى الحال) هو الوضع الذي يوافقه معنى من المعاني، فتهكم شخص بأمرٍ ما يعني حضور حال تَحْمِلُهُ على التهكم بطريقة من الطُّرُق، كإيجاد الموصوف على صفة لم يُعرَف إلا بخلافها، فإذا عُدنا إلى المثال السابق: (زيد كالأسد)، أدركنا المُفارقة في كون زيدا جباناً، أو في منتهى الجبن، فاللفظ على ما هو عليه من الإثبات أُريدَ به منتهى الإنكار، كذلك أرى أنَّ الحدَّ الذي رسمه يحيى بن حمزة في قوله: (استهزاء بالمخاطب) غير سليم؛ لأنَّ التهكم قد يقع على غير المُخاطب، كالمثال المذكور، فهو موضوع للغائب، فيكون ذلك مدعاة لإخراج (المُخاطب) أيضاً من التعريف، لعدم الحاجة إلى قيده.

من ذا؛ يُمكن القول: إنَّ التهكم . مُطلقاً يعني: إخراج الكلام ممّا وضع له استهزاءً وسُخريةً.

قيود التعريف:

- ١- في قولنا: (بلاغي)، دخلت علوم البلاغة الثلاثة (البيان والمعاني والبديع)، ولم يُحصَر المصطلح في أحدها.
- ٢- في قولنا: (إخراج الكلام على غير ما وُضِع له) خرجت الأساليب المباشرة في التهكم، وُحصِر التهكم البلاغي في التعريض دون التصريح.
- ٣- في قولنا (استهزاء): ذكر الغرض الأساسي من التهكم.
- ٤- في قولنا (بشيء ما): دخل كل ما يمكن أن يكون موضوعاً للتهكم، دون قيد، فقد يكون المُتهكَم منه حاضراً أو غائباً، عاقلاً أو غير ذلك....

من أول من عقد باباً في التهكم؟

قال ابن حجة: "هذا النوع -أعني التهكم- ذكر ابن أبي الإصبع في تحرير التحبير أنه من مخترعاته، ولم يره في كتب من تقدّمه من أئمة البديع... أقول: قول ابن أبي الإصبع إنّ هذا القول من مخترعاته، إن أراد أنه أول من عدّه من أنواع البديع وذكره في كتابه؛ فمسلّم به، وإن أراد أنه أول من اخترعه وسمّاه بهذا الاسم؛ فليس بصحيح؛ لأنّ كُتِبَ المُتقدِّمين في علم البيان لم تفتقر منه، إذ ذكروه كثيراً في بحث الاستعارة عند ذكرهم الاستعارة التهكمية، وهذا جار الله الزمخشري أقدم من ابن الإصبع بأكثر من مئة سنة، نصّ على هذا النوع باسمه في كشّافه، فقال في تأويل قوله تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ (١)، تهكم، فالمعقّبات هم الحرس من حول السلطان، يحفظونه بزعمه من أمر الله، على سبيل التهكم فإنّهم لا يحفظونه إذا جاء، والله أعلم" (٢).

ويقول السيوطي: "التهكم... وهو من مخترعات ابن أبي الإصبع" (٣).

(١) الرعد، ١١/١٣

(٢) أنوار الربيع، ١٩٤/٢

(٣) شرح عقود الجمان، ١٣٠.

ويقول د. أحمد مطلوب في معجمه: "وقال المصري: إنّ هذا الفنّ من مبتدعاته، وذكر الآية السابقة وأشار إلى الزمخشري، وكلامه حق إذا أُريد به أنّه أول من عقد للتهكم باباً؛ لأنّ البلاغيين السابقين لم يذكروه" (١).

نرى من أقوال هؤلاء العلماء أنّ ابن أبي الإصبع نسب إلى نفسه ابتداءً هذا الفن في كتابه (تحرير التحرير)، ولم أقف في باب التهكم من هذا الكتاب على شيء ممّا قاله هؤلاء (٢)، فقد أشار المصري إلى الزمخشري ولم ينسب لنفسه أيّ سبق في هذا الفن، وكذا كان الحال مع كتابه (بديع القرآن)؛ إذا لم أقف فيه على شيء من هذا أيضاً، فالظن أنّه قال ذلك في كتاب له مفقود لم ينته إلينا، أو أنّ واحداً من العلماء قد نسب إليه ذلك معتمداً على قرينة ما، فتناقلت قوله ذلك كتب البلاغة من ورائه، وإن كان من الصواب بمكان أنّه أول من عقد باباً للتهكم وإن لم يصرح هو بذلك، فقد كان هذا البحث منشوراً في كتب البلاغيين لا ينتظمه عقد إلى أن صنع له باباً في (بديع القرآن) و(تحرير التحرير)، ولا ريب أنّه قد سبق كلاً من الحلّي، والعلوي، والمدني في أفراد باب التهكم؛ لأنّه قد تقدم هؤلاء في الزمن، فقد توفي سنة (٦٥٤هـ)، في حين توفي العلويّ في (٧٤٥هـ)، والحليّ في (٧٥٠هـ)، والمدنيّ في (١١٢٠هـ) رحمهم الله جميعاً.

وقد أجمع البلاغيون على أنّ أول من أشار إلى هذا الفن هو الزمخشري في كتابه الشّهير الكشاف (٣)، إذ قال في تفسير قوله تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ (٤)، "المُعَقِّبَات: الحرس والجلّالوزة حول السّلطان، يحفظونه في توهمه وتقديره من أمر الله أي: من قضاياه ونوازلها، أو على التهكم

(١) معجم المصطلحات البلاغية، ٤٣٠.

(٢) انظر تحرير التحرير باب التهكم ٥٦٨-٥٧٠، وبديع القرآن باب التهكم ٢٨٣-٢٨٤.

(٣) انظر تحرير التحرير ٥٦٩، والطارز ٤٧٦، وأنوار الربيع ١٩٤/٢.

(٤) الرد ١١/١٣.

به" (١)، لكنني حينما تتبعت أقوال المفسرين وجدت أنهم قد اختلفوا في تفسير المعقبات، إلا أنهم يكادون يجمعون على أنها الملائكة التي تحفظ الإنسان من البلاء، وفيما يلي قول لابن كثير جمع فيه جل أقوال المفسرين في ذلك، يقول: "وقوله: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي: للعبد ملائكة يتعاقبون عليه، حرس بالليل وحرس بالنهار، يحفظونه من الأسواء والحادثات، كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ الأعمال من خير أو شر، ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار، فاثنتان عن اليمين وعن الشمال يكتبان الأعمال، صاحب اليمين يكتب الحسنات، وصاحب الشمال يكتب السيئات، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه، واحداً من ورائه وآخر من قدامه، فهو بين أربعة أملاك بالنهار، وأربعة آخرين بالليل بدلا حافظان وكاتبان.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: المعقبات من أمر الله، وهي الملائكة.

وقال عكرمة، عن ابن عباس: ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، فإذا جاء قدر الله خلّوا عنه.

وقال مجاهد: ما من عبد إلا له ملك موكل، يحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام، فما منها شيء يأتيه يريده إلا قال الملك: وراءك إلا شيء يأذن الله فيه فيصيبه.

وقال الثوري عن حبيب بن أبي ثابت، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: قال: ذلك ملك من ملوك الدنيا، له حرس من دونه حرس.

وقال العوفي، عن ابن عباس: يعني: ولي الشيطان، يكون عليه الحرس، وقال عكرمة في تفسيرها: هؤلاء الأمراء: المواكب من بين يديه ومن خلفه. وقال الضحاك: قال: هو السلطان المحترس من أمر الله، وهم أهل الشرك.

(١) الكشف ٣/٣٣٨، للزمخشري، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود، وعلي معوض، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة الأولى ١٩٩٨.

والظاهر، والله أعلم، أن مُراد ابن عباس وعِكرمة والضحاك بهذا أن حرس الملائكة للعبيد يشبه حرس هؤلاء لملوكهم وأمرائهم(١).

ثم يذكر حديثاً عن الصحابة . رضوان الله عنهم . أنهم قالوا: يا رسول الله، أرأيت رُقَيَّ نسترقى بها، هل تردّ من قَدَر الله شيئاً؟! فقال: "هي من قَدَر الله"(٢)، قال: وفي بعض القراءات: (يحفظونه بأمر الله)(٣).

وبعد هذا الموجز لأشهر أقوال المُفسِّرين التي جمعها ابن كثير، نرى ما يأتي:

* إنَّ أغلب المفسرين يرون أنَّ معنى (مُعَقَّبات) هو الملائكة الذين يحفظون الإنسان من البلايا والأسواء.

* إنَّ الحديث الوارد عن رسول الله . صلى الله عليه وآله وسلم . الذي أقرَّ بأنَّ كُلَّ ما يحفظ من قدر الله فهو من قدر الله هو قرينة يُحلَّ بها الإشكال الذي وقع في قوله تعالى: ﴿يحفظونه من أمر الله﴾.

* القراءة التي وردت في هذه الآية بلفظ: (بأمر الله) تحلَّ هذا الإشكال أيضاً.

كلُّ ما سبق يستبعد ما قاله الزمخشري من أنَّ المُعَقَّبات هي حرس الملك، فينتفي بذلك ما رآه من أنَّ هذه الآية في معرض التهكم، وإذا اعتمدت هذه القرائن لم يعد هناك وجه للاستشهاد بها في هذا الباب، والله أعلم.

أنواع التهكم وأغراضه:

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٢/٢٦٩-٢٧٠، اختصار وتحقيق محمد علي الصابوني، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٦.

(٢) الحديث في سنن الترمذي ٤/١٦١، رقم الحديث (٢٠٦٥)، تحقيق د. مصطفى محمد حسين الذهبي، دار الحديث القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٩.

(٣) القراءة، قرأ بها علي بن أبي طالب وابن عباس وعكرمة وزيد بن علي وجعفر بن محمد، المحتسب ١/٣٥٥، لابن جني، تحقيق، علي النجدي ناصف، وعبد الحليم نجار، وعبد الفتاح إسماعيل شبلي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ٢٠٠٤.

صنّف البلاغيون التهكم ضمن أحوال مُعيّنة يدور هو في فلكها، ومثّلوا لذلك بأمثلة من القرآن والحديث النبوي والشعر وأقوال العرب وأمثالهم، وقد اقتصروا في تحديدهم أنواعه على ذكر المعنى العام المستفاد من التهكم، فلم يكن حديثهم عن أنواعه إلاّ إشارة إلى الأغراض التي ورد التهكم من أجلها، فهذا ابن أبي الإصبع المصري يُحدّد غرضين من أغراض التهكم أثناء تعريفه له فيقول: "التهكم في الصناعة هو عبارة عن الإتيان بلفظ البشارة في موضع النذارة، والوعد في مكان الوعيد" (١).

وأورده يحيى بن حمزة العلوي في الكلم على خمسة أوجه (٢):

- ١- أن يكون وارداً على جهة الوعيد بلفظ الوعد تهكماً.
- ٢- أن ترد صفات المدح والمقصود بها الذم.
- ٣- قوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ﴾ (٣) وقوله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ (٤)، فما هذه حال دالة على القلة؛ لأنّ المضارع إذا لصق به (قد) فهو دال على القلة، والغرض هنا التكثير والتحقيق للعلم بما ذكره، وإنّما أورده على جهة التهكم بهم والاستهانة بحالهم حيث أسروا الخدع والمكر جهلاً بأن الله تعالى غير مطّلع على تلك الخفايا، فأورده على جهة التقليل والغرض به التحقيق انتقاصاً بحالهم في ظنهم لما ظنّوه من ذلك.

- ٤- قوله تعالى: ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ (٥)، فأورده على جهة التقليل أخرجه مخرج الشك، والغرض به التكثير والتحقيق في حالهم تلك، لأنهم في تلك الحالة يتحققون ويقطعون بأنهم لو كانوا على الإسلام قطعاً لما ينالون من

(١) انظر بديع القرآن ص ٢٨٣.

(٢) انظر الطراز ٤٧٦.

(٣) الأحزاب ٣٣/١٨.

(٤) الأنعام ٣٣/٦.

(٥) الحجر ٢/١٥.

العذاب ويتحققونه من النكال، ولا خلاص لهم عن ذلك إلا بالإسلام، فلهذا قطعنا بتلك المحبة والود للإسلام، وإنما أخرجته مخرج التهكم والاستهزاء.

٥- قوله تعالى حكاية عن شعيب: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ (١)، فلم يخرجوه عن جهة استحقاقه للمدح بهاتين الصفتين مع كونه أهلاً لهما، وإنما أخرجوه مخرج الاستهزاء والتهكم بحاله تمرّدًا واستكبارًا، وغرضهم: إنك لأنت السفیه الجاهل، إذ أمرهم بما أمرهم به من الخير والمعروف، فأبوا إلا ما كان عليه الأسلاف.

وأما الحلّي؛ فيخص التهكم بالمُتَكَبِّرِينَ، ثم يُعَدِّد أنواع التهكم على وفق وروده في القرآن (٢):

١- مخاطبتهم بلفظ الإجلال في موضع التحقير.

٢- البشارة في موضع النذير.

٣- الوعد في موضع الوعيد.

وأما صاحب (أنوار الربيع)؛ فيحصره في أسلوب الخطاب فقط، وهذا الخطاب يكون عنده على أنواع (٣):

١- بلفظ الإجلال في وضع التحقير.

٢- البشارة في موضع التحذير.

٣- الوعد في مكان الوعيد.

٤- العذر في موضع اللوم.

٥- المدح في معرض السخرية.

وما هذا إلا تكرار لما قاله الحلّي سابقاً.

(١) هود ٨٧/١١.

(٢) شرح الكافية البديعية ٨٨.

(٣) أنوار الربيع ١٨٥/١.

وبعد هذا العرض الموجز لأقوال البلاغيين في أنواع التهكم نرى أن عرضهم لأنواعه لم يكن دقيقاً، إذ كان موافقاً للحال التي ورد فيها، وطرائق مجيئه في الكلام، والأغراض التي ورد من أجلها، فكان أحدهم يجمع الآيات الواردة في معرض التهكم ثم يُفرد كلاً منها في نوع خاص، ولم تكن هذه الأنواع واضحة في أذهانهم بعد، والدليل على ذلك قول صاحب الطراز بعد أن عرض للتهكم وأقسامه: "وليس له ضابط يضبطه، وإنما الجامع لشتات معانيه هو ما ذكرناه من إخراج الكلام على خلاف مقتضى الحال، فلا بد من مراعاة ما ذكرناه وإن اختلفت صورته" (١).

أغراض التهكم (بحسب ما أورده البلاغيون):

*البشارة في موضع النذارة، والوعد في وضع الوعيد:

كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٢)، يقول أبو حيان: "والبشارة هي أول خبر سار، فإذا استعملت مع ما ليس بسار قيل: ذلك هو على سبيل التهكم والاستهزاء كقوله (٣):

تَحِيَّةٌ بَيْنَهُمْ ضَرْبٌ وَجِيعٌ

أي: القائم لهم مقام الخبر السار هو العذاب الأليم وقيل: هو على معنى تأثر البشارة من ذلك، فلم يؤخذ فيه قيد السرور، بل لوحظ معنى الاشتقاق" (٤).

(١) الطراز ٤٧٦.

(٢) آل عمران ٢١/٣.

(٣) صدره: (وخيل قد دَلَفَتْ لها بِخَيْلٍ)

لعمر بن معدى كرب، ديوانه ١٤٩.

(٤) انظر البحر المحيط ٧٧/٣، لأبي حيان الأندلسي، بعناية الشيخ زهير جعيد، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٢.

وكقوله سبحانه: ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ
وَسَاءَتْ مُرْتَقَقًا﴾ (١)، يقول الألوسي (٢): (وقوله سبحانه : ﴿يُغَاثُوا﴾...الخ خارج
مخرج التهكم بهم كقول بشر بن أبي خازم (٣):

عَصِبْتَ تَمِيمٌ أَنْ تُقَتِّلَ عَامِرٌ يَوْمَ النِّسَارِ فَأَعْقَبُوا بِالصَّيْلَمِ (٤)

ويقول ابن أبي الإصبع: (ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ
إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٥)، فقوله سبحانه ﴿إيمانكم﴾ تهكم، والله أعلم، ومن السنة قول
الرسول صلى الله عليه وسلم: (بَشِّرْ مَالَ الْبَخِيلِ بِحَادِثٍ أَوْ وَارِثٍ) (٦).

* العذر في موضع اللوم:

منه قول أبي الحديد (٧):

عَذَرْتُكُمَا إِنَّ الْجِمَامَ لَمُبْغَضٌ وَإِنَّ بَقَاءَ النَّفْسِ لِلنَّفْسِ مُحْبُوبٌ

وقول جاسوس الملك في الوزير أبي القاسم الجرجاني وكان أقطع اليد من
المرافق (٨):

أَقَمْتَ نَفْسَكَ فِي الثَّقَا.....تِ وَهَبَكَ فِيمَا قُلْتَ صَادِقٌ

(١) الكهف ٢٩/١٨.

(٢) انظر روح المعاني ١٣٥/٨، للألوسي، بتحقيق سيد عمران، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٥.

(٣) ديوانه ١٨٠، تحقيق د. عزة حسن، مطبوعات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٦٠.

(٤) العُتْبَى: الرضا، انظر اللسان (عتب)، ووجه الاستشهاد بالبيت أنه قال: (فأعتبوا بالصليم) أي
أعتبناهم بالسيف والقتل، انظر مجمع الأمثال: ٢١٣/١، والبيت في المستقصى في أمثال العرب
للزمخشري، ١٣٦/١، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٥) البقرة ٩٣/٢.

(٦) تحرير التحرير ٥٥١، و خزانة الأدب وغاية الإرب ٢١٦، لابن الحجة الحموي، دار
ومكتبة الهلال بيروت، شرح عصام شعيثو، الطبعة الثانية، ١٩٩١، والغالب أن هذا ليس من
كلام النبي صلى الله عليه وسلم؛ إذ لم أقف عليه في أي من كتب المتون والتخريج.

(٧) نسب إليه في أنوار الربيع ١٩٤/٢.

(٨) أنوار الربيع ١٩٤/٢.

فَمِنْ الْأَمَانَةِ وَالتُّقَى قُطِعَتْ يَدَاكَ مِنَ الْمِرَافِقِ

* الإجلال في موضع التحقير:

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْكَرِيمُ﴾ (١)؛ أي: ويقال: أو قولوا له ذلك استهزاءً وتقريعاً على ما كان يزعمه (٢)، ويقول أبو حيان: "ذُقْ": أي العذاب، ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْكَرِيمُ﴾، وهذا على سبيل التهكم والهزء لمن كان يتعزز ويتكرم على قومه... وهذا كما قال جرير (٣):

أَلَمْ يَكُنْ فِي وُسُومٍ قَدْ وَسَمْتُ بِهَا مَنْ حَانَ مَوْعِظَةٌ يَا حَارِثَ الْيَمَنِ
يقولها لشاعر سمى نفسه به في قوله:

أَبْلُغْ كُلِّبَاءً وَأَبْلُغْ عَنْكَ شَاعِرَهَا... أَنِّي الْأَعَزُّ وَأَنِّي زَهْرَةُ الْيَمَنِ

فجاء به جرير على جهة الهزء (٤).

وفي تفسير هذه الآية يقول الزمخشري: "قوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ على سبيل الهزء والتهكم بمن كان يتعزز ويتكرم على قومه، وروي أن أبا جهل قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ما بين جليلها أعز ولا أكرم مني، فوالله ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلوا بي شيئاً" (٥).

* الذم في معرض المدح:

(١) الدخان ٤٤/٤٩.

(٢) انظر المحتسب ١/١٠١.

(٣) ديوانه (بشرح الصاوي) ٥٦٩.

(٤) انظر البحر المحيط ٩/٤٠٨.

(٥) انظر أسباب النزول للواحي ٣٩٨، والكشاف ٤/٢٨٢.

وهو أن يقصد المتكلم إلى هجاء إنسان فيأتي بألفاظ موجّهة ظاهرها المدح وباطنها القدح، فيوهم أنه يمدحه وهو يهجوّه (١)، وهذا الغرض من مستخرجات ابن أبي الإصبع كما ذكر السيوطي (٢)، وجاء في فقه اللغة وسر العربية تحت باب في المدح يراد به الذمّ فيجري مجرى التهكم والهزء: (والعرب تفعل ذلك فتقول للرجل تستجهله: يا عاقل، وللمرأة تستقبحها: يا قمر) (٣)، كما تقول لأجمل الناس: ما أعلمك، على سبيل الهزء به. ومن أمثلة ذلك قول عبد الصمد بن المعدّل أو أبي العميثل في أبي تمام وقد كانت في لسانه حُبسة (٤):

يا نبيّ الله في الشّع....ر ويا عيسى بن مريم
أنت من أشعر خلق اللّ....ه ما لم تتكلم
وشاهد المدح في موضع الاستهزاء قول ابن الذرّوي في ابن أبي حصينة من أبيات خفيف (٥):

لا تظنّ خُدبة الظهر عيباً فهي في الحُسن من صفات الهلال
وكذاك القسيّ محدودباتٌ وهي أنكى من الطُّبا والعوالي
وَإِذَا مَا عَلَا السَّنام ففيه لَقُرُومُ الجِمال أي جمال
وَذُنَابِي القِطاة وهي كما تع..... لم كانت موصوفةً بالجلال
وَأَرَى الانحناءَ في مَنَسِرِ البَا..... زي لم يَعُدْ مَخْلَبَ الرِّئبال
كَوْنَ الله حُدبةً فيكَ إن شَد.....ت من الفضل أو من الإفضال
فَأَنْتَ ربوة على طودٍ حلمٍ طال أو موجةً ببحر نوال

(١) تحرير التحرير ٥٥٠.

(٣) انظر شرح عقود الجمان ١٣٠.

(٣) انظر فقه اللغة وسر العربية ٢٥٨، لأبي منصور الثعالبي، تحقيق فائز محمد، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٦.

(٤) تحرير التحرير ٥٥٠.

(٥) تحرير التحرير ٥٦٩-٥٧٠، الطراز ١٦٤.

ما رأتها النساء إلا تمتت لو غدت حلية لكل الرجال

ثم ختمها بقوله:

وإذا لم يكن من الهجر بدّ
فعسى أن تزورني في الخيال
وكقول ابن الرومي (١):

فيا له من عملٍ صالحٍ
يرفعه الله إلى أسفل
يقول ابن أبي الإصبع: وأحسب أن أول من نطق بالتهكم في شعره امرؤ القيس، حيث
يقول (٢):

فأنشَبَ أظفاره في النساء
فقلت هُبلت ألا تتنصّر

فإن قوله للشور هُبلت ألا تبصر من التهكم اللطيف (٣).

ولم يدرج البلاغيون هذا الغرض ضمن أغراض التهكم بل أفردوا له باباً خاصاً بل
يفرقون بينه وبين التهكم، يقول ابن معصوم: (والفرق بينه [أي التهكم] وبين الهجاء
في معرض المدح أن التهكم يفهم من لفظه أو فحواه أو أسلوبه أو مقامه أن المقصود
السخرية والاستهزاء، بخلاف الهجاء في معرض المدح، فإن ظاهره لا يدل على
المدح حتى يقترن به ما يفهم أن المقصود الهجو، وهذا الفرق أحسن من غيره فإنه
أوفى بالمراد، وبيت بديعية الشيخ صفي الدين الحلي في هذا النوع قوله (٤):

مَحَضَّتْ لِي النُّصْحَ إِحْسَاناً إِلَيَّ بِلَا
غَشٍّ وَقَلَّدَتْنِي الْإِنْعَامَ فَاحْتَكِمِ

قال ابن حجة: لم يظهر لي من هذا البيت غير صريح المدح والشكر،
ولم أجد فيه لفظة تدل على الحقارة والاستهزاء، ولا على الوعد في موضع الوعيد،

(١) ليس في ديوانه المطبوع بتحقيق د. حسن نصار، وإليه نسب في تحرير التحبير ٥٧٠، وشرح
الكافية البديعية ٨٨.

(٢) البيت في ديوانه ٩٧، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر و(النِّسَا) بفتح
النون: عرق في الفخذ يأخذ إلى القوائم، وهُبلت: ثكلت.

(٣) تحرير التحبير ٥٧٠.

(٤) ديوانه، ٥٧٠، تحقيق د. عمر فاروق الطباع، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، الطبعة
الأولى، ١٩٩٧.

ولم يشر في بيته إلى نوع من هذه الأنواع، أقول: قد عدّوا من التهكم قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ (١)، وظاهر أنه ليس في هذا لفظة تدل على الحقارة، وإنما أفهم التهكم المقام، وكذا بيت الصفي الحلي؛ فإنه خطاب للعادل والعاشق لا يخاطب عاذله بمثل هذه الألفاظ إلا متهمّاً مستهزئاً به (٢).

ويقول الحلي: (والفرق بينه وبين الهجاء في معرض المدح التصريح أخيراً بلفظة يخالف معناها معنى الإكرام في الكلام الأول في هذا دون ذلك) (٣).

نرى أن ابن معصوم وإن كان يفرد هذا الغرض باباً مستقلاً بعيد عن التهكم إلا أنه يقر ضمناً أنه باب من أبوابه بدليل قوله: (وإنما أفهم التهكم المقام)، وهل الأغراض السابقة للتهكم تفهم دون فهم للمقام ومقتضى الحال؟ إذن فالتهكم لا يتحصّل إلا ما بفهم لمقتضى الحال ومراعاة المقام، فعلى هذا يمكننا إدراج هذا الغرض في أغراض التهكم، والذي أفرد هذا الباب بنفسه عن باب التهكم مع أن الذي فيه من المدح تهكم هو أن التهكم لا تخلو ألفاظ من لفظة من اللفظ الدال على نوع من أنواع الدّم، أو لفظة يفهم من فحواها الهجو (٤)، والحلي يجعل الفرق بين التهكم والهجاء في معرض المدح هو لفظة تكون قرينة في التهكم دون الهجاء، ولكنّ هناك من التهكم ما ليس فيه قرينة لفظية إلا أنه غاية في السخرية، وحسبك الأمثلة السابقة دليلاً على ذلك، فإدراج هذا الغرض بين أغراض التهكم ليس ببعيد من الصواب.

ومن الجدير بالذكر هنا ما ذكره البلاغيون في الفرق بين التهكم والهزل الذي يراد به الجد: يقول صاحب التحرير: "والفرق بين التهكم والهزل الذي يراد به الجد أن التهكم ظاهره جد وباطنه هزل، وهو ضد الأول، لأن الهزل الذي يراد به الجد

(١) هود ٨٧/١١.

(٢) أنوار الربيع ١٩٥/٢-١٩٦.

(٣) شرح الكافية البديعية ٨٨.

(٤) تحرير التعبير ٥٥٢.

يكون ظاهره هزلاً وباطنه جدّاً" (١)، ويؤيد هذا القول ما قاله الحلي: "والفرق بينه وبين الهزل الذي يراد به الجد أنّ التهكم ظاهره جدّ وباطنه هزل، والآخر ظاهره هزلاً وباطنه جدّاً" (٢)، ولا أرى فارقاً كبيراً بينهما، لأن السخرية تتسحب على كلّ من هذين الغرضين، فليس ثمة حاجة إلى هذا التقسيم، ومن أمثلة الهزل المراد به الجدّ قول امرئ القيس (٣):

وَقَدْ عَلِمْتَ سَلْمَى وَإِنْ كَانَ بَعْلُهَا بِأَنَّ الْفَتَى يَهْذِي وَلَيْسَ بِفَعَالٍ

هذا وقد حاولت استقراء جميع ما ورد في القرآن من التهكم، وأحصيت كثيراً من الأحاديث النبوية وأشعار العرب وأقوالهم وأمثالهم، ما جاء في معرض التهكم، فوجدت أن كل باب من أبواب علوم المعاني والبيان والبدیع يصلح لأن يكون مظلة يندرج تحته غرض التهكم، وذلك لأن التهكم غرض معنوي يستخدم فيه المتهكم ما يشاء من ألوان البلاغة وأصنافها، فيتفاوت المتهكمون في ذلك كلّ حسب قدرته اللغوية وبراعته في تسخير البلاغة في خدمة غرضه، فمنهم من يستخدم أسلوب الاستفهام ويسخره في غرض التهكم، ومنهم من يستخدم الأمر.. الخ، وفيما سيأتي تحديد الأساليب اللغوية التي ورد التهكم في أثناءها:

١- أسلوب الأمر:

من المعروف أنّ للأمر أربع صيغ: فعل الأمر، والمصدر النائب عن فعله، والمضارع المقترن بلام الأمر، واسم فعل الأمر، وللأمر أغراض كثيرة، من هذه الأغراض التهكم والإهانة، ويكونان عندما تستخدم صيغة الأمر في مقام الإهانة

(١) تحرير التحبير ٥٧٠.

(٢) شرح الكافية البديعية ٨٨.

(٣) البيت في ديوانه ٣٤ ، وانظر شرح التلخيص في علوم البلاغة ١٨٠، للقزويني، شرح محمد هاشم دويدري، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٢.

والسخرية والتقليل من شأن المخاطب (١)، كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٢)،
وقوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ (٣)، ومن الإهانة قوله تعالى: ﴿قُلْ كُونُوا
حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ (٤)، وقد يكون الأمر للاحتقار مثل قول الحطيئة (٥):
تنحّي فاجلسي منّا بعيداً
أراح الله منك العالمينا
وقوله تعالى: ﴿أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ (٦).

٢- أسلوب النهي:

وهو طلب الكف عن الفعل على جهة الاستعلاء والإلزام، وله صيغة واحدة
وهي المضارع المسبوق بلا الناهية الجازمة، وقد يأتي هذا النهي لغرض التحقير
والسخرية، وذلك إذا كان النهي في مقام الحط من منزلة المخاطب وقدره، كقول
الشاعر:

لا تطلبِ المجد إنَّ المجد سلّمه صعبٌ وعش مستريحاً ناعم البال
وقول الآخر:

لا تحسبوا من قتلتم كان ذا رمق فليس تأكل إلا الميتة الضُّبُعُ
٣- أسلوب الاستفهام:

وهو طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبل، وذلك بواحدة من أدوات الاستفهام
الإحدى عشرة، والتي يمكن جعلها حسب الدلالة في ثلاث زمر:

(١) انظر الإيضاح ٢٤٢.

(٢) آل عمران ٢١/٣.

(٣) الدخان ٤٩/٤٤.

(٤) الإسراء ٥٠/١٧.

(٥) ديوانه ١٠٠، برواية ابن السكيت، تحقيق د. نعمان أمين طه، مكتبة الخانجي،
القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٨٧.

(٦) الشعراء ٤٣/٢٦.

الأولى: ما يدل منها على طلب التصور والتصديق وهي الهمزة، والتصوير هو طلب تعيين مفرد، والتصديق هو طلب إدراك النسبة بين المسند والمسند إليه ثبوتاً أو نفيّاً، كنسبة الفعل إلى الفاعل في (أقرأت كتاب سيبويه؟).

الثانية: ما يدل على التصديق وحده وهي (هل).

الثالثة: ما يدل على التصور وحده، وهي سائر أدوات الاستفهام.

ومن المعاني التي تخرج إليها أدوات الاستفهام التهكم (١)، كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ (٢) يقولون له على سبيل التهكم، ﴿أَصْلَاتُكَ﴾ (٣)، وكان شعيب عليه السلام كثير الصلاة مواظباً على العبادة، فلما أمرهم ونهاهم عيروه بما رأوه يستمر عليه من كثرة الصلاة واستهزؤوا به، وقال تعالى في شأنهم: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ (٤)، والمناسبة في ذلك -والله أعلم- أنهم لما تهكموا بنبي الله الله شعيب في قولهم: ﴿أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ (٥) فجاءت الصيحة فأسكتتهم (٦).

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ (٧)، من الواضح هنا أن الاستفهام غرضه الاحتقار، بدليل قوله تعالى: (هزواً) أي سخريه وتهكماً، يقول أبو حيان: (لم يقتصر المشركون على إنكار

(١) انظر الإيضاح ٢٤٠.

(٢) هود ٨٧/١١

(٣) انظر مختصر ابن كثير ٢/٢٢٦، والجنى الداني ٣٣، للمرادي، تحقيق د. فخر الدين قباوة،

ومحمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٢.

(٤) هود ٩٤/١١

(٥) هود ٨٧/١١

(٦) مختصر ابن كثير ٣٤/٢.

(٧) الفرقان ٤١/٢٥.

نبوة الرسول عليه الصلاة والسلام وترك الإيمان به، بل زادوا على ذلك بالاستهزاء والاحتقار، حتى يقول بعضهم لبعض ﴿أهذا الذي بعث الله رسولا﴾ و (إن) نافية جواب (إذا) وانفردت (إذا) بأنه إذا كان جوابها منفيًا بما أو بلا لا تدخله الفاء، بخلاف أدوات الشرط غيرها فلا بد من الفاء مع ما ومع لا إذا ارتفع المضارع، فلو وقعت (إن) النافية في جواب غير إذا فلا بد من الفاء كما النافية ومعنى ﴿هزوا﴾ موضع هزء أو مهزواً به، ﴿أهذا﴾ قبله قول محذوف أي يقولون وقال : جواب (إذا) ما أضمر من القول أي: وإذا رأوك قالوا: أهذا الذي بعث الله رسولا، و ﴿إن﴾ يتخذونك ﴿جملة اعتراضية بين (إذا) وجوابها.

قيل : ونزلت في أبي جهل كان إذا رأى الرسول عليه الصلاة والسلام قال: أهذا الذي بعث الله رسولا؟ وأخبر بلفظ الجمع تعظيماً لقبح صنعه أو لكون جماعة معه قالوا ذلك : والظاهر أن قائل ذلك جماعة كثيرة وهذا الاستفهام استصغار واحتقار منهم أخرجوه بقولهم بعث الله رسولا في معرض التسليم والإقرار وهم على غاية الجحود والإنكار سخرية واستهزاء، ولو لم يستهزئوا لقالوا هذا زعم أو ادعى أنه مبعوث من عند الله رسولا (١).

ومن ذلك بيت الفرزدق الذي ذكره النحاة (٢):

كَمْ عَمَةً لَكَ يَا جَرِيرُ وَخَالَةً... فَدَعَاءٌ قَدْ حَلَبْتُ عَلَيَّ عِشَارِي

وقالوا في (عمّة) أنها تُروى بالنصب على اللغة التميمية أو على تقديرها استفهامية استفهام تهكم؛ أي أخبرني بعدد عماتك وخالاتك اللاتي كن يخدمني فقد نسيته (٣). نسيته (٣).

(١) البحر المحيط ١٩٦/٦.

(٢) ديوانه ٣٦١/١، دار صادر، بيروت، ١٩٦٦، والفعاء: التي اعوجت مفاصلها.

(٣) انظر مغني اللبيب عن كتب الأعراب ٢٤٥/١، مغني اللبيب، لابن هشام الأنصاري تحقيق د.مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، دار الفكر، بيروت، الطبعة السادسة ١٩٨٥، وأوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ٢٤٣/٤، لابن هشام الأنصاري، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ٢٠٠١.

٤- أسلوب التمني:

وهو طلب محبوب لا يُتَوَقَّع حصوله لاستحالة الحصول عليه، أو لكونه بعيد المنال (١)، ولم يذكر أحد من البلاغيين هذا الأسلوب في معرض التهكم إلا أنني وجدته في خزانة الأدب حيث كان البغدادي يتحدث عن بيت من الشعر وهو (٢):
أَتَانِي وَعَيْدُ الْحَوْصِ مِنْ آلِ جَعْفَرٍ فَيَا عَبْدَ عَمْرِ لَوْ نَهَيْتَ الْأَحَاوِصَا!
والبيت من قصيدة لأعشى قيس، نفر فيها عامر بن الطفيل على ابن عمه علقمة بن علاثة الصحابي رضي الله عنه، ثم يقول: "وجواب (لو) محذوف أي: لو نهيتهم لكان خيراً لهم، ويجوز أن تكون للتمني على سبيل التهكم" (٣).

٥- أسلوب النداء:

وهو طلب المتكلم إقبال المخاطب عليه بحرف من حروف النداء ينوب مناب الفعل أنادي، ومن أدوات النداء ما يكون لنداء القريب وهي الهمزة وأي، ومنها ما يكون لنداء البعيد وهي باقي الأدوات وهي: (يا، آ، أي، أيا، هيا، وا).
لكن المنادي القريب قد ينزل منزلة البعيد القاصي فينادي بغير الهمزة وأل وذلك لأغراض (٤)، منها تحقير شأن المنادي، فينادي القريب بأداة نداء البعيد احتقاراً وامتهاناً، من ذلك قولك لمن بحضرتك: (يا هذا اتَّعِظْ)، و(يا هذا لا تتصرف حتى يؤذن لك)، وعليه قول الشاعر:

أيا هذا أتطمع في المعالي وما يحظى بها إلا الرجال؟

(١) انظر محاضرات في علم المعاني ١٠٦.

(٢) ديوان الأعشى ١٠٩ [الصباح المنير في شعر أبي بصير]، وخزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ١/١٨٣، لعبد القادر البغدادي، تحقيق عبد السلام هارون، الهيئة المصرية للكتاب، الطبعة الثانية، ١٩٧٩.

(٣) خزانة الأدب ١/١٨٤.

(٤) انظر محاضرات في علم المعاني ١١٣.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى على لسان قوم شعيب: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ (١)، فنداؤهم للنبي شعيب عليه السلام باسمه نداء البعيد وهو في حضرتهم فيه ما فيه من التهكم به واحتقاره، فضلاً عما ذكرنا سابقاً من استخدام الاستفهام للتهكم والسخرية.

ملحوظة:

من مجمل المعروض كانت مرادفات (التهكم) تُطلّ برأسها بين الحين والآخر، فإن لم تكن كذلك؛ فإنّها ممّا يُمكن أن تكون بمنزلته، أو بمعناه إلى حدّ بعيد، كالتحقير والتندير، فالتحقير مثلاً يشابه التهكم في كثير من الأمور، فالتمهكّم به مُحْتَقَرٌ عند المتهكّم، كما أنّ الأمثلة التي أوردها علماء البلاغة لهذه المصطلحات قريبة جداً من أمثلة التهكم لذلك آثرت إيراد بعضها في أثناء الأساليب التهكميّة، وقد ورد في كتاب الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري، في الفرق بين المزاح والاستهزاء، أنّ المزاح لا يقتضي تحقير من يمازحه ولا اعتقاد ذلك، ويقول: "ألا ترى أنّ التابع يمازح المتبوع من الرؤساء والملوك ولا يقتضي ذلك تحقيرهم ولا اعتقاد تحقيرهم، ولكن يقتضي الاستئناس بهم، والاستهزاء يقتضي تحقيره لاستهزاء به واعتقاد تحقيره" (٢)، فالتحقير غرض ملازم للتهكم، وعلى هذا أرى أنّ التهكم في كثير من حالاته شكلٌ من أشكال التحقير فإدراجه في ضمنه ليس بعيداً من الصواب.

٦. أسلوبا التعريف والتنكير:

قد يُستخدم التعريف والتنكير للتحقير والتهكّم، ومن ذلك:

أ- التعريف بالإشارة: وذلك بغرض تحقير المُسند إليه بالقرب أو البعد، ومثال الأول قولك: أهذا الذي يغتابك؟ أهذه التي تخشاها؟ ومنه في القرآن الكريم قوله تعالى

(١) هود ٨٧/١١

(٢) الفروق اللغوية ٢٤٨، لأبي هلال العسكري، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٨١.

على لسان أبي جهل مشيراً إلى النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ
أَلِهَتَكُمْ﴾ (١)، وقوله: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ﴾ (٢).
ومثال التحقير بالبعد قولك لمن يجلس في مجلسك (ذلك البخيل الذي يكنز أمواله ولا
ينفقها)، ومنه في القرآن الكريم: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ (٣).
ب- التعريف بالإضافة:

كقوله تعالى لسان فرعون: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ (٤)، وفي
إضافة رسول هنا إلى الكاف مع الميم علامة الجمع استهزاء به.
ج- التنكير:

قد يُنكّر المتحدث شيئاً ما لتحقيره والتهكم به، ومن ذلك قولك لرجل تحتقره
وتتهكم بجبنه: يا رجل، فتُنكّر كلمة رجل مبالغة في الاستهزاء والسخرية، وذلك كما
قي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْنَا مَا نَذْرِي مَا
السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّقِينَ﴾ (٥)، وما تنكير كلمة (ظناً) إلا تحقير
وتهكم بما جاء به المرسلون، ومن ذلك أيضاً الآية التي مثّلت بها في الفقرة السابقة:
﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ (٦)، فلم يقل مثلاً: (لهو المجنون) وفي
هذه العبارة تأكيد بل نكرها لأنّ تنكير كلمة (مجنون) فيها مبالغة في التهكم.

٧. أسلوب القصر:

(١) الأنبياء ٣٦/٢١

(٢) العنكبوت ٦٤/٢٩

(٣) آل عمران ١٧٥/٣

(٤) الشعراء ٢٦/٢٧

(٥) الجاثية ٣٢/٤٥

(٦) الشعراء ٢٦/٢٧

كثيراً ما يستخدم أسلوب القصر في معرض التهكم؛ لأن أسلوب القصر ما هو إلا تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص (١)، فإذا استخدم هذا التخصيص في التهكم، كان أبلغ في إظهار أغراضه.

مثال ذلك قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ فَنَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ (٢)، النفي والاستثناء من أساليب القصر، واستعمال إن النافية مع إلا الحاصرة يشعر المتلقي بتهكم هؤلاء الكافرين برسولهم، إذ ألحقوا به صفة الجنون مقصورة عليه، وهذا غاية في التهكم.

٨. أسلوبا التشبيه والاستعارة:

وهذا النوع من التهكم لم تتعرض له كتب البلاغة بطريقة تفصيلية، رغم أنه أسلوب مستعمل في التهكم، وهو شائع جداً، فإذا شبهنا زيدا بالأسد ونحن نعلم عنه الجبن يكون هذا التشبيه على سبيل التهكم، فهذا السكاكي يقول: في باب التشبيه: "واعلم أن الشبه قد ينتزع من نفس التّضادّ نظراً على اشتراك الضدين فيه من حيث اتصاف كل واحد منهما بمضادة صاحبه ثم ينزل منزلة شبه التناسب بواسطة تلميح أو تهكم فيقال للجبان: ما أشبهه بالأسد: وللبخيل: إنه حاتم ثان" (٣)، ويقول القزويني: (واعلم أن الشبه قد يُنتزع من نفس التضاد لاشتراك الضدين فيه، ثم يُنزل منزلة التناسب بواسطة تلميح أو تهكم، فيقال للجبان: ما أشبهه بالأسد، وللبخيل: هو حاتم) (٤).

وهناك الكثير من الصورة التهكمية التي وردت في الشعر العربي والقرآن الكريم، ولم تتعرض كتب البلاغة - كما أسلفت - لهذا الأسلوب من أساليب التهكم

(١) انظر محاضرات في علم المعاني ٢٠١.

(٢) المؤمنون ٢٣/٢٤.

(٣) مفتاح العلوم ٢٩٦، للسكاكي، تحقيق نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٣.

(٤) الإيضاح ٣٩١.

رغم شيوعه إلا ما كان من ذكرهم لما سمه بالاستعارة التهكمية أو التمليلية، فقد جاء في معجم المصطلحات البلاغية: الاستعارة التهكمية (التميلية): هي استعمال الألفاظ الدالة على المدح في نقائضها من الذم والإهانة.

أقوال العلماء في الاستعارة التهكمية:

أ- الفراء (٢٠٧هـ): وقد أشار الفراء إلى مثل هذا الأسلوب في القرآن الكريم وقال: وقوله: ﴿فَأَنَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ﴾ (١) الإثابة ههنا في معنى عقاب، ولكنه كما قال الشاعر (٢):

فَلَمَّا خَشِيتُ أَنْ يَكُونَ عَطَاؤُهُ أَدَاهِمَ سُودًا أَوْ مُحَدَّرَجَةً سُمِرَا

وقد يقول الرجل الذي قد اجترم إليك: لئن أتيتني لأثيبنك ثواباً، ومعنه أعاقبه، وربما أنكره من لا يعرف مذاهب العربية، وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، والبخارة إنما تكون في الخير وقد قيل ذلك في الشر (٣).

ب- ابن جني (٣٩٢هـ): نظر ابن جني إلى هذا الأسلوب بمثل ما نظر إليه البلاغيون في المجاز المرسل إلى اعتبار ما كان فقال تعليقاً على قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ : (إنما هو في النار الدليل المهان، لكنه خوطب بما كان يخاطب به في الدنيا، وفيه مع هذا ضرب من التبكيت والإنكار له بسوء أفعاله) (٤)، والبخارة إنما تكون في الخير فقد قيل ذلك في الشر.

ج- السكاكي (٦٢٦هـ): قال السكاكي في تعريف الاستعارة التمليلية أو التهكمية: (هي استعارة اسم أحد الضدين أو النقيضين للآخر بواسطة انتزاع شبه التضاد وإلحاقه بشبه التناسب بطريق التهكم أو التمليح، ثم ادّعاء أحدهما من جنس الآخر

(١) آل عمران ١٥٣/٣.

(٢) الفرزدق ديوانه، ١/١٨٨، والأدهم: القيود، والمحدرة السمر: السياط المحكمة القتل.

(٣) معجم المصطلحات البلاغية ٩٥.

(٤) المحتسب ١/١٠١.

والإفراد بالذكر ونصب القرينة، كقولك: إن فلاناً تواترت عليه البشارات بقتله، ونهب أمواله، وسبي أولاده(١).

د-القزويني: عدها القزويني من العنادية فقال: (ومنها ما استعمل في ضدّ معناه أو نقيضه بتنزيل الضاد أو التناقض منزلة التناسب بواسطة تهكم أو تمليح)(٢).
وسار على ذلك المدني الذي قال: "ومن العنادية التهكمية والتمليحية، وهما ما استعمل في ضد أو نقيض، نحو قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، أي أنذرهم، استعيرت البشارة التي هي الإخبار بما يسرُّ للإنذار الذي هو ضده، بإدخاله في جنسها على سبيل التهكم، وكذا قولك : رأيت أسداً وأنت تريد جباناً على سبيل التمليح والطرافة".

- نلاحظ أنّ أقوال العلماء في الاستعارة التهكمية تشبه ما قاله البلاغيون في (البشارة في موضع النذارة) إلى حد بعيد، فيمكننا أن نعدّ الاستعارة ههنا أسلوباً في التهكم، وأن (البشارة في موضع النذارة) غرض من أغراض التهكم كما أسلفت، وفي هذا توفيق بين أقوالهم.

ممّا تقدّم يبدو لي أنّ أساليب التهكم وأغراضه كثيرة لا تنتهي، يفرضها السياق وواقع الحال، فكلّ تهكم أسلوب وغرض يوافقان ما يأتيانه من مختلف الأحوال، من أجل ذلك أقول: إنّ حصر التهكم في أغراض بعينها شكلاً من أشكال الجهل ب(اللغة الإنسان)، أو نوعاً من أنواع التعصّب البارد. فإنّ المذكور برُمّته علامة من علامات التطور الفكري الذي تشهده العربية في مجتمعاتها.

التهكم في القرآن الكريم:

قد يسأل السائل، فيقول: هل في القرآن الكريم تهكم وهو كتاب الله تعالى القائل: ﴿إِنَّا سَلَقْنَاكَ عَلَىكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾؟(١)، فنقول: نعم، فالقرآن نزل بلسان العرب، مستخدماً

(١) مفتاح العلوم ٣٧٥.

(٢) الإيضاح ٢٩٠.

أساليبهم، والتهكم - بغير شك - أسلوب عربي شائع، وقد ثبت ورود التهكم في القرآن بآيات صريحة.. جاء في الكشف، في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ الله يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمْدُحُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (٢).

"فإن قلت: لا يجوز الاستهزاء على الله تعالى، لأنه مُتَعَالٍ عن القبيح، والسخرية من باب العيب والجهل. ألا ترى إلى قوله: ﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوءًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (٣)، فما معنى استهزائه بهم؟ قلت: معناه إنزال الهوان والحقارة بهم؛ لأنَّ المستهزئ غرضه الذي يرميه هو طلب الخفة والزراية ممن يهزأ به، وإدخال الهوان والحقارة عليه.

وقد كثر التهكم في كلام الله تعالى بالكفرة، والمراد به تحقير شأنهم وازدراء أمرهم، والدلالة على أن مذاهبهم حقيقة بأن يسخر منها الساخرون ويضحك الضاحكون.

فإن قلت: كيف ابتدئ قوله : ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ ولم يعطف على الكلام قبله؟ قلت: هو استئناف في غاية الجزالة والفخامة، وفيه أن الله عز وجل هو الذي يستهزئ بهم الاستهزاء الأبلغ، الذي ليس استهزأؤهم إليه باستهزاء ولا يؤبه له في مقابلته، لما ينزل بهم من النكال ويحل بهم من الهوان والذل، وفيه أن الله هو الذي يتولى الاستهزاء بهم انتقاماً للمؤمنين، ولا يحوج المؤمنين أن يعارضوهم باستهزاء مثله" (٤).

(١) المزمّل ٥/٧٣.

(٢) البقرة ١٤/٢-١٦.

(٣) البقرة ٦٧/٢.

(٤) الكشف ٨٦/١.

ومن تلك الآيات أيضاً قولها تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١).

فالسخرية جائزة في حق الله تبارك وتعالى، إلا أنها سخرية لائقة بذاته، لا تشبه سخرية البشر، بل هو استهزاء فيه توبيخ لهم ولوم على ما ارتكبه من المعاصي (٢)، ولا نشبه في ذلك ولا نمثل.

والآيات التي تحمل معنى التهكم في القرآن كثيرة، وإن المتتبع لأغراض التهكم في القرآن يرى أنها تنقسم على قسمين:

١- تهكم الله سبحانه بالكافرين عقاباً لهم على ما ارتكبه من آثام:

ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهُطِعِينَ﴾ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴿أَيُطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ (٣).
(فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ) أي في الجهة التي تليك، (مُهِطِعِينَ): مسرعين نحوك مادي أعناقهم إليك مقبلين بأبصارهم عليك ليظفروا بما يجعلونه هزواً، (عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ)، جماعات في متفرقة.

وروي أنه عليه الصلاة والسلام كان يصلي عند الكعبة ويقرأ القرآن فكان المشركون يجتمعون حوله حلقاً حلقاً وفرقاً يستمعون ويستهزؤون بكلامه عليه الصلاة والسلام ويقولون إن دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمد صلى الله عليه وسلم فلندخلها قبلهم فنزلت (٤)، ثم يقول بعد هذه الصورة التي تصف أحوال أولئك الكافرين مستهزئاً بهم كما استهزؤوا بالرسول عليه الصلاة والسلام: "أَيُطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ"، وهذا السؤال فيه تهكم بهم وسخرية.

(١) التوبة ٧٩/٩.

(٢) انظر مختصر ابن كثير ٣٣/١.

(٣) المعارج ٣٦/٧٠-٣٨.

(٤) انظر أسباب النزول للواحي ٤٧٤، روح المعاني ٤٢٢/١٥.

٢- تهكم الكافرين بالأنبياء ورسالتهم، وتهكمهم باتباعهم من المؤمنين:

ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ إِنَّا بِمَا تَعْدُنَا إِنَّا كُنْتُمْ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١).

يُصَوِّرُ الله . سبحانه . حال أولئك الكفار الذي عتوا عن أمر ربه؛ فبعد أن عقروا الناقة واستكبروا، وأغضبوا الله سبحانه بدؤوا بالتهكم، وجاء تهكمهم هذا في غير موضع من الآية:

أ- التهكم باستخدام النداء: حيث قالوا لنبي الله: (يا صالح)، وخاطبوه باسمه استصغاراً له، واستهزاء وتكهماً به.

ب- التهكم باستخدام الأمر: فقد أمروه أن يأتيهم بعذاب الله ووعيده لهم، وما هذا إلا غاية في الاستكبار والاستعلاء والتهكم بأنبياء الله سبحانه.

ج- قولهم (إن كنت من المرسلين) فيه تكذيب سافرٍ جلِّي لنبي من أنبياء الله، ممزوج بشيء من التهكم بما جاء به من النبوة، وشأن هذه الآية كشأن كثير من الآي التي يستهزأ فيها الكفار بأنبياء الله عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام.

ومثال ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٣١).

نلمح في هذه الآية غير وجهٍ من وجوه الاستهزاء، وهي:

أ- قولهم (قد سمعنا): فيه استخدام لأسلوب الخبر، لإظهار التهكم بما قد سمعوه فأرادوا أن يقولوا: (قد سمعنا ولا نطيع)، فليست علة عصيانهم عدم سماعهم، بل إنهم قد سمعوا كل ما قيل لهم وعصوا بملء إرادتهم، وهذا فيه ما فيه من التهكم بالرسول وإظهار التكبر، وما التهكم تكبر بمعنى من معانيه (٢).

ب- قولهم: (لو نشاء لقلنا)، فيه استخدام لأسلوب الشرط في معرض التهكم.

(١) الأعراف ٧/٧٧.

(٢) انظر معنى التهكم اللغوي فيما سلف ص ٦.

ج- قولهم: (إن هذا إلا..)، استخدام لأسلوب من أساليب القصر (النفى والاستثناء) (١)، وهو قصر صفة على موصوف على سبيل التهكم. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ (١٢٤) ﴿٢﴾.

وقولهم: "رُسُلُ اللَّهِ" ليس فيه إقرار بالرُّسل من الله، وإنما قالوا ذلك على سبيل التهكم والاستهزاء، ولو كانوا موقنين وغير معاندين لاتبَّعوا رسل الله، والمثلية كونهم يجري على أيديهم المعجزات فتُحيى لهم الأموات ويُفلق لهم البحرُ ونحو ذلك، كما جرت على أيدي الرُّسل والأنبياء أو جبريل والملائكة، كانشقاق القمر (٣).

(١) انظر محاضرات في علم المعاني ص ٢٠٢.

(٢) الأنعام ١٢٤/٦.

(٣) انظر البحر المحيط ٦٣٧/٤.

نتائج البحث:

- ١- ليس التهكم بمصطلح بلاغي بالمعنى المطلق للكلمة، بل هو معنى معجمي، يصلح أن يكون غرضاً من أغراض الأساليب البلاغية.
- ٢- لم يفرد كثير من البلاغيين باباً خاصاً للتهكم، بل كان التهكم عندهم غرض من الأغراض يذكر تحت عناوين بلاغية أخرى.
- ٣- باب التهكم في كتب البلاغة باب صغير مضطرب، لا يرقى إلى مستوى الأبحاث البلاغية الأخرى التي أعارها البلاغيون قدراً كبيراً من اهتمامهم.
- ٤- كان تعريف التهكم عند كثير من البلاغيين تعريفاً قاصراً، لا يعدو أن يكون ذكراً لأغراضه، وهناك من البلاغيين من ينطبق تعريفه على التهكم في القرآن فحسب دون أن يصرح بذلك.
- ٥- لم يحط البلاغيون بأغراض التهكم جميعها، بل اقتصروا على أشهر الأغراض، ولم يحاولوا الخوض في تفاصيلها.
- ٦- لم يجمع البلاغيون أساليب التهكم، بل جاءت متناثرة في كتب البلاغة تحت أبواب أخرى، ولا سيما استخدام الاستعارة والتشبيه في معرض التهكم، وقد حاولت في هذا البحث جمع أغلبها.
- ٧- أساليب التهكم اللغوية كثيرة لا تكاد تنتهي، وإنَّ أيَّ أسلوب لغويٍّ من الممكن أن يُسخَّر للتهكم، كما أنَّ أغراضه يعرَّض حصرها، لموافقتها أحوال الناس وثقافتهم الآخذة بالانتساع والتطور.
- ٨- الزمخشري أول من ذكر التهكم غرضاً بلاغياً، وابن أبي الإصبع المصري أول من عقد له باباً.
- ٩- ورد التهكم في القرآن في غير موضع، وهو في القرآن على وجهين؛ إمَّا تهكم الكافرين بالأنبياء . عليهم السلام ورسالاتهم وأتباعهم . أو تهكم من الله سبحانه بالكافرين الجاحدين.

١٠- تهكم الله تعالى وسخريته أمر ثابت في القرآن الكريم بآيات واضحة، إلا أنه تهكم يليق بذاته سبحانه، فهو - سبحانه - لا يُشابه في ذلك أحداً من خلقه، مفاده العقاب والعذاب لأولئك المعاندين، ولا نشبه به أحداً ولا نمثل، وهو الذي ليس كمثل شيء.

.....

المصادر والمراجع

- أسباب نزول القرآن، لعلي بن أحمد الواحدي النيسابوري، (ت ٤٦٨ هـ)، تحقيق السيد أحمد صقر، دار القبله، الطبعة الثانية، ١٩٨٤.
- أنوار الربيع في أنواع البديع، للسيد علي صدر الدين بن معصوم المدني (ت ١١٩ هـ)، تحقيق شاكر هادي شكر، مكتبة العرفان كربلاء، العراق، الطبعة الأولى ١٩٦٨.
- أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، لابن هشام الأنصاري، (ت ٧٦١ هـ)، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، ٢٠٠١.
- الإيضاح في علوم البلاغة، للخطيب القزويني، جلال الدين، أبي المعالي محمد بن عبد الرحمن، (ت ٧٣٩ هـ)، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، منشورات دار الكتاب اللبناني، الطبعة السادسة ١٩٨٥.
- البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان، (ت ٧٤٥ هـ) بعناية الشيخ زهير جعيد، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٢.
- بديع القرآن، لابن أبي الإصبع المصري، عبد العظيم بن الواحد بن ظافر، (ت ٦٥٤ هـ)، تحقيق محمد حفني شرف، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.
- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، لابن أبي الإصبع المصري، عبد العظيم بن الواحد بن ظافر، (ت ٦٥٤ هـ)، تقديم وتحقيق محمد حفني شرف، القاهرة ١٩٩٥.
- الجنى الداني، لبدر الدين، الحسن بن قاسم بن عبد الله بن علي المرادي المصري (ت ٧٤٩ هـ)، تحقيق د. فخر الدين قباوة، ومحمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٢.

- خزنة الأدب وغاية الإرب، للشيخ تقي الدين أبي بكر علي المعروف بابن الحجة الحموي، (ت ١٤٣٣ هـ)، دار ومكتبة الهلال ببيروت، شرح عصام شعيتو، الطبعة الثانية، ١٩٩١.
- خزنة الأدب ولب لباب لسان العرب، لعبد القادر البغدادي، (ت ١٠٩٣ هـ)، تحقيق عبد السلام هارون، الهيئة المصرية للكتاب، الطبعة الثانية، ١٩٧٩.
- ديوان بشر بن أبي خازم عمرو بن عوف الأسدي، تحقيق د. عزة حسن، مطبوعات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٦٠.
- ديوان جرير بن عطية بن حذيفة التميمي، شرح محمد إسماعيل الصاوي، دار الأندلس، بيروت.
- ديوان الحطيئة، جرول بن أوس بن مالك العبسي، برواية ابن السكيت، تحقيق د. نعمان محمد أمين طه، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٨٧.
- ديوان ابن الرومي، علي بن العباس بن جريج، تحقيق د. حسين نصار، مطبعة دار الكتب، مصر، ١٩٧٩.
- ديوان الفرزدق، همام بن غالب بن صعصعة التميمي، دار صادر، بيروت، ١٩٦٦.
- ديوان امرئ القيس بن حجر بن حارث الكندي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر.
- ديوان صفي الدين الحلي، عبد العزيز بن سرايا الطائي، تحقيق د. عمر فاروق الطباع، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧.
- روح المعاني، لمحمود بن عبد الله الحسيني الآلوسي، (ت ١٢٧٠ هـ)، بتحقيق سيد عمران، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٥.
- سنن الترمذي، لأبي عيسى محمد بن عيسى (ت ٢٧٩ هـ)، تحقيق د. مصطفى محمد حسين الذهبي، دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٩.

- شرح التلخيص في علوم البلاغة، للخطيب القزويني، جلال الدين، أبي المعالي محمد بن عبد الرحمن، (ت ٧٣٩ هـ)، شرحه وخرج شواهد محمد هاشم دويدري، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٢.
- شرح عقود الجمان، لجلال الدين السيوطي، (ت ٩١١ هـ)، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٩٣٩.
- شرح الكافية البديعية في علوم البلاغة ومحاسن البديع، لصفى الدين الحلبي، عبد العزيز بن سرايا الطائي، (ت ٧٥٠ هـ)، تحقيق د. نسيب نشاوي، دار صادر، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٩٢.
- شعر عمرو بن معدي كرب الزبيدي = ديوانه، تحقيق مطاع الطرابيشي، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، الطبعة الثانية، ١٩٨٥.
- الصبح المنير في شعر أبي بصير، الأعشى والأعشى الآخرين = ديوان الأعشى الكبير، ميمون بن قيس، طبعة آدلف هلهوسن، بيانة، ١٩٢٧.
- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة ودلائل الإعجاز، ليحيى بن حمزة العلوي، (ت ٧٤٩ هـ)، تحقيق محمد عبد السلام شاهين، توزيع مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، ودار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٥.
- الفروق اللغوية، لأبي هلال العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل، (ت بعد ٣٩٥ هـ)، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٨١.
- فقه اللغة وسر العربية، لأبي منصور الثعالبي، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل، (ت ٤٢٩ هـ)، تحقيق فائز محمد، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٦.
- الكشف، للزمخشري، أبي القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي، (ت ٥٣٨ هـ)، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود، وعلي معوض، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة الأولى ١٩٩٨.

- لسان العرب، لابن منظور الإفريقي، محمد بن مكرم بن علي، (ت ٧١٠ هـ)، دار صادر، بيروت الطبعة الأولى.
- مجمع الأمثال، لأبي الفضل الميداني، أحمد بن محمد (ت ٥١٨ هـ)، تحقيق د. قصي الحسيني، دار الهلال، بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٣.
- محاضرات في علم المعاني، للدكتور محمد هيثم غرة، والدكتورة منيرة فاعور، منشورات جامعة دمشق، كلية الآداب، ٢٠٠٣.
- المحتسب في تبين وجود شواذ القراءات والإيضاح عنها، لأبي الفتح عثمان بن جني، (ت ٣٩٢ هـ)، تحقيق علي النجدي ناصف، وعبد الفتاح إسماعيل شبلي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ٢٠٠٤.
- مختصر تفسير ابن كثير، لإسماعيل بن كثير الدمشقي، (ت ٧٧٤ هـ)، اختصار وتحقيق محمد علي الصابوني، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٦.
- المستقصى في أمثال العرب للزمخشري، أبي القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي، (ت ٥٣٨ هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت.
- معترك الأقران في إعجاز القرآن، للسيوطي، تحقيق محمد علي البجاوي، دار الفكر العربي.
- معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، للدكتور أحمد مطلوب، مكتبة لبنان ناشرون، الطبعة الثانية، ١٩٩٦.
- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لجمال الدين أبي محمد عبدالله بن يوسف بن هشام الأنصاري، (ت ٧٦١ هـ)، تحقيق د. مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، دار الفكر، بيروت، الطبعة السادسة ١٩٨٥.
- مفتاح العلوم، ليوسف أبي بكر محمد بن علي السكاكي (ت ٦٢٦ هـ)، ضبطه وكتب شواهد نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٣.